الفصل الأول

حياة سان سيمون وبيئته العقلية

سان سيمون

نشأته ، بيئته العقلية ونشاطه الفكرى

فى مدينة باريس ، وفى السابع عشر من أكتوبر عام ١٧٦٠ رزق « الكونت بالتازار هنرى دى سان سيمون » طفلا جديدا أسماه كلود . وكان على الصغير كلود أن يحمل الدم الأزرق فى عروقه ، دم أجداده من النبلاء الذين يقال إنهم من سلالة شارلمان . كما كان عليه أن يقضى أيام طفولته وشبابه بين حقول القمح فى مقاطعة بيكاردى بفرنسا — حيث كان يتنقل والده بين مزارعه فى بيرون وفلاڤى وقلعة برنى — وكان عليه فى الوقت نفسه أن يرى أضواء باريس ويتذوق ألوان الحياة الصاخبة فيها وهو فى صحبة أبيه فى أسفاره العديدة إلى العاصمة الفرنسية .

لم يتذوق كلود هنرى دى سان سيمون فى مستهل حياته أياما من الطفولة السعيدة فقد كان عنيدا ميالا للتحرر من قيود الدين والانطلاق من سلطة الأسرة ، وساعد على ذلك أنه تلقى علومه الأولى على أيدى نكرات من الرجال ، لم يكن لهم فضل فى تثبيت مثله العليا أو تحديد منهجه فى مستهل حياته . وفى العام الثالث عشر من عمره ، اضطر والده — إزاء عصيانه المستمر — إلى إيداعه فى دير « سان لازار » St. Lazare بباريس كوسيلة لتأديبه . وظل بهذا الدير فترة من الوقت إلى أن تعهدت إحدى عماته بتحمل مسئوليته .

ثم تبدأ صفحة جديدة فى حياة سان سيمون عندما ينضوى تحت لواء الجندية . ففى فرقته العسكرية بتورين يبدأ أول اتصال فكرى له « بدالمبير d'Alembert » ، وقد كانت لتعاليم دالمبير آثار عميقة فى تفكير سان سيمون وفى منهجه فى مستقبل حياته . وفى عام ١٧٧٩ انضم صف الضابط كلود هنرى دى سان سيمون إلى صفوف المتطوعين من أشراف الفرنسيين للمساهمة فى حرب

---

(١) راجع چان دترى : سان سيمون ص ١٠

التحرير الأمريكية ، وظل يساهم فى حرب التحرير حتى حصلت الولايات المتحدة على استقلالها عام ١٧٨٣ .

يقول سان سيمون — فى مذكراته الخاصة — أن هذه السنوات الخمس قد علمته ما لم يتعلم من قبل . فقد كان طوال إقامته فى أمريكا يقرأ ويشاهد ويتمعن ويستنتج ، وكانت العلوم السياسية تشغله أكثر مما كانت الفنون الحربية تسترعى اهتمامه . فالحرب فى ذاتها لم تكن تعنيه على الإطلاق ، وإنما الهدف الذى كانت ترمى إليه هذه الحرب هو الذى كان يملك عليه زمام قلبه[١] . وهو فى ذلك يقول : « لم تكن الجندية صنعتى على الإطلاق فقد اتجهت إلى ناحية من النشاط بعيدة كل البعد عن واجبات الجندية . . لقد كانت دراسة سير التفكير الإنسانى بقصد الوصول إلى أسمى درجات الحضارة هى الهدف الذى كرست له أغلب ساعات عملى وفراغى »[٢] .

أدرك سان سيمون أن العامل الجوهرى الذى أشعل نيران الثورة هو رفض أهالى الولايات الأمريكية الخضوع للسيطرة التجارية التى تفرضها شركة الهند التجارية ، ولهذا اعتبر سان سيمون أن قيام الثورة الأمريكية ليس إلا بداية لعصر سياسى جديد ، وأن هذه الثورة يجب أن تحدث أثرها فى تطور الحضارة .

وقد غرست فيه حرب التحرير الأمريكية كراهية عنيفة للاستعمار ، ومعارضة مستمرة لقيام الجيوش النظامية المرتزقة . وكان يرى أن السلام الدائم أمر ميسور المنال إذا اتصلت الثقافات وتقاربت الميول وتناسقت الاتجاهات على أساس علمى سليم وخاصة عن طريق شق القنوات التى تربط القارات والمحيطات بعضها بالبعض الآخر .

وفى نهاية حرب الاستقلال الأمريكية ، اتجه سان سيمون إلى المكسيك —

---

(١) L'Industrie ou Discours Politiques, Morales et Philosophiques in Oeuvres de Saint- Simon et d'Enfantin, 2ème volume, T. XVIII, p. 148, 149.

(٢) نفس المرجع السابق . الجزء ١٨ ، ص : ١٤٨ .

وكانت تابعة فى ذلك الوقت لإسبانيا — حيث عرض على حاكمها مشروعا لإنشاء ممر يوصل المحيط بالبحر عن طريق قناة إنبارتيدو Inpartido [١]، ولكنه لم يصادف ما كان ينتظره من تشجيع فسافر إلى إسبانيا . وفى إسبانيا نما إلى علمه أن الحكومة الإسبانية بصدد الشروع فى شق قناة توصل مدريد بالبحر ، وأن المشروع يلزمه التمويل والأيدى العاملة فأسرع بالاتصال بالكونت دى كاباروس ، وعرض بالاشتراك معه على الحكومة الإسبانية مشروعا ينظم عملية التمويل وإعداد الأيدى العاملة . ولكن قيام الثورة الفرنسية حال دون تنفيذ هذا المشروع أيضا ، فعاد سان سيمون إلى فرنسا وأقام فى بلدته « فلاڤى » .

بيد أن هذا الفشل لم يثن من عزمه ، ولم يحل دونه ومحاولة تحقيق فكرة الإنسانية العالمية عن طريق ربط القارات والمحيطات بعضها بالبعض الآخر . ولكن أثر الصدمة بدأ فى مفكراته الخاصة التى كتبها عام ١٨٠٩ وظلت مطوية فترة طويلة بعد وفاته ، ولم تنشر إلا على أيدى أتباعه فى عام ١٨٦٨ .

يقول سان سيمون : « بالرغم من أن حياتى سلسلة من الصدمات ، فإننى لم أيأس قط ، لأننى مهما هبطت فإن الموج يرفعنى مرة أخرى ، فلم يحدث أن أدى بى الفشل مره إلى السقوط فى الهاوية . قد أهبط أحيانا ولكن قوتى الدافعة تحملنى دائما إلى أعلى مهما كانت العقبات[٢] » .

وفى فلاڤى انتخب الفلاحون الكونت كلود دى سان سيمون رئيسا لاتحادهم ، فأعلن سان سيمون على الملأ تنازله عن لقب كونت واعتزازه بأن يكون مواطنا فحسب[٣] . وفى عام ١٧٩٠ وجه المواطن سان سيمون نداء إلى الجمعية التأسيسية نيابة عن الناخبين ذكر فيه « أن جميع المواطنين سواء فى الوظائف والأعمال

---

(١) نجد هنا الجذور الأولى لفكرة سان سيمون فى الإنسانية العالمية التى تتلخص فى وصل القارات ببعضها عن طريق الممرات المائية .

(٢) Abrégé de l'histoire de la Vie de Saint-Simon, in Oeuvres de S.S. et d'Enfantin, T. XV, pp. 77-78.

(٣) راجع المجموعة الكاملة لمؤلفات سان سيمون وانفانتان ، الجزء الأول : ص ١٥ .

العامة ، كل بحسب قدراته دون ما تميز سوى فضائله وخبراته[١] » .

ويذكر المؤرخ « ألبير ماتييه » Albert Mathiez أن اتصالا تم فى حوالى عام ١٧٩١ بين سان سيمون والزعيم الشيوعى « بابف » Babeuf ، حيث تحدث معه عن بعض عمليات بيع الأملاك الأهلية فى الصفقة التى كان بابف منتخبا لإدارة عملية بيعها[٢] . ويشاع أن سان سيمون تعددت أسفاره بعد هذه المقابلة وأصبح فى عداد الأثرياء ، وكانت مهنته كوكيل لبعض البنوك تمكنه من الاتصال بكثير من الأشخاص من شيع مختلفة واتجاهات متباينة .

وفى شهر سبتمبر من عام ١٧٩٠ تقدم مجهول إلى لجنة فحص الطعون الدستورية ببلاغ ضد سان سيمون يتهمه فيه بالاتصال بالمهاجرين ، وببعض أفراد الطبقة الأرستقراطية الذين لا يزالون فى فرنسا . ورغم أن التحقيقات لم تكشف عن أساس واضح لهذه الاتهامات إلا أن تصرفات سان سيمون ظلت مثارا للشك باعثة على الريبة .

وتصادف وجود سان سيمون فى كامبرى عندما فر الملك إلى ڤارن ، ولكى يحول سان سيمون بين أعداء الثورة وبين القيام بأى عمل هدام ، أسرع بتولى قيادة الحرس الوطنى استعدادا للمناداة بالجمهورية ، ولكن أمنية سان سيمون فى قيام الجمهورية لم يكتب لها التحقيق فى ذلك الوقت (يونية ١٧٩١[٣]) .

وفى يونية عام ١٧٩٣ كان سان سيمون موضعا لتحريات لجنة الخلاص الوطنى ، ولكن الوطنيين من أهالى برون دافعوا عنه دفاعا مجيدا . ومنذ أكتوبر عام ١٧٩٥ استقر سان سيمون نهائيًا فى باريس وأنشأ مؤسسة للنقل بالسيارات أطلق عليها اسم « مؤسسة سان سيمون » L'Etablissement Saint-Simon وظل يعمل فى هدوء حتى قام الانقلاب ضد الملكية فى ٤ سبتمبر عام ١٧٩٧ ،

---

(١) نفس المرجع السابق : ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) راجع الأرشيف الأهلى بباريس ملف رقم (A.F. 1-232)

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٨ .

وأخذت الصحف الجمهورية تطالب باعتقال سان سيمون متهمة إياه بأنه يدير مؤسسة للنقل كستار يخفى منظمة ملكية خطيرة .

ولنترك سان سيمون يدفع عن نفسه هذا الاتهام إذ يقول : « إن آرائى وتصرفاتى السياسية منذ عام ١٧٨٩ لم تجعل فى الإمكان اعتقالى لأى سبب ، أو لأى دافع مهما كان حقيقيًا أو ظاهريًا . ولهذا فإننى لا أخشى سوى أعداء الثورة الذين يعرفون أنه لا يوجد من هو أكثر تمسكا بمبادئها من شخصى الضعيف[١] » .

واضطر سان سيمون إلى تصفية أعماله التجارية والعودة إلى دراساته من جديد . ففى يوم من أيام عام ١٧٩٨ استدعى بعض أصدقائه ومعارفه حيث قرأ عليهم مقالا كتبه عن الأخلاق ، وقد صارحه بعض أصدقائه — ومن بينهم ردرن Redern — بأن هذا المقال يحتاج إلى التعديل فى كثير من المواطن . وكان هذا يرجع — بلا شك — إلى نقص كبير فى ثقافة سان سيمون الأولى . ومن هذا الوقت أخذ سان سيمون يعكف على استكمال ما فاته من ألوان الثقافة .

بدأ سان سيمون يقتنع بأن رسالته الاجتماعية تقتضى منه توفرا على الدراسة العلمية العميقة ، هذه الدراسة التى لا بد أن تتضمن أولا علوم الطبيعة الرياضية . وكانت مدرسة الهندسة العسكرية بباريس L'école Polytechnique هى المكان الذى تتوافر فيه هذه الدراسة ، مما دفع سان سيمون إلى السكنى فى مواجهتها ، وتابع المحاضرات متابعة جدية ثلاثة أعوام متتالية .

كان سان سيمون يرى أنه من الضرورى إعداد جيل من العلماء ، الذين سوف يتولون مقاليد الأمور فى المجتمع . فعمل على تشجيع الشباب المثقف أمثال بواسون Poisson وجال Gall وكابانى Cabanis وبيشا Bichat وبلنفيل Blainville وفتح داره لهم ، فكانت مجمعا لرواد الحركة الفكرية فى القرن التاسع عشر .

---

(١) تكذيب نشره سان سيمون فى جريدة باريس Le Journal de Paris بتاريخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٩٧ .

ظل سان سيمون مبتعدا عن الانغماس فى الشئون السياسية العامة ، وكانت ثقته عظيمة فى مقدرة بونابرت على إنهاء ما خلفته الثورة من فوضى فى البلاد . كان يثق فى بونابرت ثقة مطلقة ، ولكن استغلاله لمعنى الحرية لم يكن يتفق مع المبادئ الجمهورية التى تشبع بها سان سيمون فى حرب الاستقلال الأمريكية ، فانقلب سان سيمون على بونابرت وصار من أعنف خصومه ومن أشد المهاجمين لسياسته .

ويتبين اتجاه سان سيمون فى رسالة بعث بها إلى مدام دى ستال Mme de Staël يؤيدها فى موقفها العدائى من بونابرت ويصارحها برأيه فى الدكتاتور الغاشم فيقول : « إن مجرد الاعتقاد بأن سيدة مثلك تعيش تعيسة بسبب آرائها يثيرنى ويؤلمنى جدا . . . هل استطاع هذا المدعو نابليون ، الذى حكم عليك بالنفى ، والذى يرى أن النساء لا يصلحن إلا للأمور التافهة ، أن يقوم بإنتاج مثل ما قدمت من آراء لها أثرها فى تقدم الفكر الإنسانى ؟ » لا . . إننى أستشعر الثورة على هذا الوضع [1] » .

وفى شهر مايو عام ١٨٠٤ قام البوليس بتفتيش مسكنه للبحث عن مخطوط بعنوان : « محاولة لخطة جديدة فى التنظيم الاجتماعى يضعها محب للإنسانية » .
Esquisse d'un nouveau plan d'organisation sociale par un philanthrope

ولكن هذا المخطوط لم يعثر عليه لأن أحد أصدقاء سان سيمون كان قد أخذه لطبعه خارج فرنسا .

وقد أفضت الرقابة المستمرة على تصرفات سان سيمون وحركاته إلى اتجاهه إلى البحث العلمى البحت ، متبعا منهج رجال الموسوعة العلمية Les Encyclopédistes وأصبحت آراء سان سيمون العلمية تسير فى الاتجاه العلمى للفريق الذى يناصر جمع المعارف الفلسفية .

* * *

(١) Mémoires inédits d'Hippolyte Auger. Paris, 1891 p. 396-398.

ساعدت حالة الاستقرار ومعاهدة السلام التى عقدت بين فرنسا وإنجلترا فى ٢٥ مارس سنة ١٨٠٢ على إتاحة الفرصة لسان سيمون فى الخروج إلى المجتمعات الأوربية ، فسافر إلى ألمانيا ليلمس عن قرب إلى أى مدى وصل الألمان فى ثقافتهم . وفى مذكراته الخاصة يسجل سان سيمون عن زيارته لألمانيا : « إن العلوم لا تزال فى طفولتها فى هذه البلاد ، ما دام أنها تقوم عندهم على مبادئ صوفية[١] » . ولم يفت سان سيمون أن يسافر كذلك إلى بلاد الإنجليز حيث تأكد أن « إنتاجهم ونشاطهم الفكرى لا يقوم على أى مبدأ أساسى جديد[٢] » . ولهذا فإن الطريق مفتوح أمام من يريد أن يقيم دعائم المجتمع الجديد .

هذه الحقائق دفعت سان سيمون إلى تسجيل أفكاره « لسعادة بنى الإنسان » تحت عنوان « رسائل من أحد سكان جنيف إلى معاصريه » فى عام ١٨٠٣ Lettres d'un habitant de Genève à ses contemporains. فقد اكتشف الفيلسوف أن الوسيلة الوحيدة إلى تفادى المآسى التى تهدد المجتمع هى زوال النظام الاجتماعى القديم الذى أوجد المجتمع فى حالة من الفوضى وعدم الاستقرار . وفى هذه الرسائل يقول سان سيمون إن إدارة الشئون الإنسانية يجب أن تسند إلى هيئة من العلماء والفنانين المنتخبين ، الذين يؤجرون عن طريق الاكتتاب العالمى . هذه الهيئة الحرة البعيدة عن كل تدخل ، يطلق عليها اسم « مجلس نيوتن » Le Conseil de Newton فإن الله « قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة وتنظيم شئون البرية[٣] »

وفى بداية عام ١٨٠٥ بدأت أحوال سان سيمون المالية تسوء وأخذ يعدل عن الأرستقراطية والترف إلى حياة يغلب عليها البساطة والاقتصاد ، فيعمل مصححا فى إحدى المطابع تارة ، وعاملا فى إحدى المكتبات تارة أخرى . كما بدأت آراء سان سيمون وأهدافه تتجه اتجاها جديدا ، فقد وجد أن نابليون قد استبد بكل

---

(١) جان دتري : سان سيمون ص ٢٥ .

(٢) المرجع السابق : ص ٢٧ .

(٣) قام سان سيمون بنشر هذه الرسائل فى جنيف للمرة الأولى ثم أعاد طبعها مرة أخرى فى باريس .

من يهتم بالعلوم الاجتماعية وبأنصار فلسفة القرن الثامن عشر ، كما أن الاتجاه نحو جمع المعارف الفلسفية جمعا علمياً قد اختفى تماما عندما أصدر نابليون الأمر الإمبراطورى ، فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٠٧ ، بإلغاء النشرة الدورية التى تتبنى هذا الاتجاه الفكرى فى فرنسا .

ولم يكن هناك بد من أن يتحول سان سيمون فى دراساته وكتاباته وجهة أخرى حتى يتجنب ملاحقته وإيذائه ، فوجد بغيته فى البحث العلمى الحق ؛ البحث فى الفلك والرياضة والطبيعة والكيمياء . ومع كل فقد كانت العلوم الاجتماعية تستهويه ، فكان يكتب بين الحين والحين نظرات عامة عن الدين والتاريخ ، كما كان يتناول بعض الأحداث السياسية بالتعليق ، دون أن يفوته — بالرغم منه — أن يؤكد العبقرية التى لا حد لها لنابليون الإمبراطور .

واستطاع سان سيمون بمعونة مالية من أحد أصدقائه أن يطبع — فى الفترة ما بين عام ١٨٠٧ وعام ١٨١٠ — ثلاثة مؤلفات علمية : أولها بعنوان « مقدمة للأعمال العلمية فى القرن التاسع عشر »(١٨٠٧ — ١٨٠٨) . Introduction aux travaux scientifiques du XIXe siècle. والثانى بعنوان « خطابات إلى مكتب المساحة » (عام ١٨٠٨) . Lettres au Bureau des Longitudes ثم نشر ثلاث مقالات تدعو إلى ضرورة قيام « موسوعة علمية جديدة » (عام ١٨١٠) . Projet d'encyclopédie de C.H. Saint-Simon

ولم يسلم سان سيمون من النقد والتجريح ، رغم أن هذين المؤلفين كانا محاولة للوقوف على سير التفكير الإنسانى وتفسيرا لهذا التفكير . وفى المؤلف الأخير — على وجه الخصوص — يؤكد سان سيمون أن العلوم تمر فى حالات ثلاث أولها حالة تخمينية لاهوتية والثانية حالة وسط بين التخمين والواقعية والحالة الثالثة هى الحالة الواقعية أو الوضعية . وقد كتبت « صحيفة الإمبراطورية » Le Journal de l'Empire وهى الصحيفة الرسمية الوحيدة فى ذلك الوقت — تقول فى عددها الصادر يوم ٢١ أبريل سنة ١٨١٠ أن « سان سيمون لا يتخذ مذهبا واحدا فى تفكيره ،

ولكنه يعلن مذهبا للجمهور ويبطن مذهبا آخر يسر به إلى أصدقائه وخاصته ، فقام البوليس على الفور بمصادرة كتاباته ومخطوطاته عن الموسوعة الجديدة .

وظلت الأفكار التى كان يتهم سان سيمون بالإفضاء بها إلى أصدقائه وخاصته محبوسة عن الرأى العام إلى أن أتيح له إعلانها فى عام ١٨١٣ فى بحثه عن « علم الإنسان » Mémoire sur la Science de l'homme وفى بحثه عن « الجاذبية العامة » Travail sur la gravitation universelle حيث قال : « إن الإمبراطور ليس مستعدا لإقرار السلام ، فهو لا يشجع سوى علم واحد ، العلم الذى يسبب الموت والدمار [1] » .

وفى أكتوبر عام ١٨١٤ نشر سان سيمون بالاشتراك مع سكرتيره « أوجستان تييرى » Augustin Thierry الجزء الأول من مؤلفه المعروف « فى إعادة تنظيم المجتمع الأوربى » De la Réorganisation de la Société Européenne ويعتبر هذا المؤلف من أهم كتابات سان سيمون لأنه يحاول أن يشخص الداء الذى يعانيه المجتمع ، ويخلص من تشخيصه إلى أن تقدم الفكر الإنسانى والثورات التى تعترض سير معارفنا تضفى على كل قرن صفاته المميزة . ثم يتناول سان سيمون موضوعات سياسية مختلفة بالتعليق والتحليل ، ففى عدد يناير عام ١٨١٥ من مجلة الرقيب Le Censeur يكتب مقالا يحث فيه الطبقة البورجوازية أن تؤلف حزبا للمعارضة .

* * *

ظل سان سيمون منطلقا فى أفكاره التحررية إلى أن تناهى إلى الأسماع نبأ فرار نابليون من جزيرة إلبا Elba فى طريقه إلى باريس . فاضطر سان سيمون إلى مهادنته طوال الأيام المائة التى قضاها فى الحكم بعد عودته من المنفى .

وعندما عاد لويس الثامن عشر إلى الحكم بدأ سان سيمون مع فريق من المفكرين الأحرار فى إعداد خطة للمستقبل . فانضم إلى جماعة تعرف « بجمعية التعليم الابتدائى » ، هدفها تنظيم نوع من الدراسة الأولية فى فرنسا تكون مستقلة

(١) Le Censeur, Janvier 1815 (Cf. Jean DAUTRY : op. cit., p. 25).

عن إشراف الكنيسة ، وتسير على نمط الدراسة الأولية فى إنجلترا . وقد لقى هذا المشروع تأييدا كبيرا من بين القادرين من أبناء الطبقة البورجوازية فتبرعوا بالأموال اللازمة لأجور المعلمين فى فترة الإعداد فقط ، لأن المشروع كان يهدف إلى قيام المتعلمين بالتطوع لتعليم فريق آخر بعد انتهاء فترة تعليمهم وهكذا . هذا النوع من التعليم يعرف بالتعليم المتبادل L'Enseignement Mutuel ، وكان سان سيمون يهدف من وراء ذلك المشروع إلى تزويد المصانع والمؤسسات العمالية بالعمال الأكفاء المستنيرين .

وفى أواخر عام ١٨١٦ قام سان سيمون بنشر بعض فصول تحمل عنوانا واحدا هو « الصناعة » L'Industrie ، وظل يتابع كتابته فى هذا الموضوع من ديسمبر عام ١٨١٦ إلى مايو عام ١٨١٨ . وكانت « الصناعة » فى الحقيقة مجلة دورية ، ولكن سان سيمون لم يشأ أن يجعل لها تلك الصبغة حتى يفلت من القيود التى كانت مفروضة على المجلات السياسية فى ذلك الوقت ، فكان يتعمد إصدارها فى مواعيد غير منتظمة .

وتعد مجلة الصناعة حلقة اتصال بين الصناعة العلمية والفنون الأدبية من جانب وبين الصناعة التجارية والفنون اليدوية من جانب آخر . وتمتاز هذه الموضوعات بالطرافة لأنه — حتى ذلك الوقت — لم يكن هناك من سبق سان سيمون فى ربط العمل بالتبطل ، والتعرض لهما بالدراسة العلمية التحليلية . ولكن ظهور « الصناعة » لم يستمر فترة طويلة فقد حل محلها فى أوائل عام ١٨١٩ مجلة « الرجل السياسى » Le Politique التى قام سان سيمون بإصدارها ، بصفة دورية ، بالاشتراك مع سكرتيره أوجست كونت . ولم يكن حظ هذه الأخيرة أفضل من سابقتها ، فقد توقفت عن الصدور فى عددها الثانى عشر .

وفى نوفمبر عام ١٨١٩ نشر سان سيمون سلسلة من المقالات التى كتبها بنفسه دون الاستعانة بأحد ، والتى ضمنها فيما بعد مؤلفا سماه « المنظم » L'Organisateur وكان الهدف الواضح لهذه المقالات هو عرض الوسائل والطرق التى تؤدى إلى النظام

الصناعى ، فكانت أشبه بدستور للدولة يتضمن لجنة للاختراعات أعضاؤها من المهندسين والأدباء والفنيين ورجال العلم والرياضة ، ولجنة للتنفيذ أعضاؤها من رجال الصناعة الأثرياء . وبانتهاء هذه المقالات تنتهى المرحلة الأولى من مراحل صراع سان سيمون فى سبيل تحقيق الصناعة المثالية ، انتهت بطبيعة الحال نهاية غير موفقة ، لأن الرأى العام لم يكن مهيئا لتقبل هذه الأفكار ، فضلا عن أنها كانت عسيرة التنفيذ . ولكن المجهود الذى بذله سان سيمون أفضى — بلا شك — إلى تقدم ملحوظ فى أفكاره وآرائه عن الطبقات الاجتماعية والصراع بين هذه الطبقات .

* * *

وفى بداية عام ١٨٢٠ تظهر مرحلة جديدة من مراحل نشاط سان سيمون ، وتستمر حتى وفاته فى عام ١٨٢٥ ، مرحلة تنتهى بنجاحه فى تجميع الطبقة البورجوازية بأكملها حول رجال الصناعة من البورجوازيين ، وتجميع الشعب بأكمله حول الطبقة البورجوازية نفسها . هذا التجمع هو الذى ساعد على قيام ثورة عام ١٨٣٠ فى فرنسا . وقد تركزت كتابات سان سيمون فى هذه المرحلة حول الوسائل التى تجعل من النظام الملكى نظاما شعبيًّا قوميًّا . وتعتبر مؤلفاته فى هذه المرحلة على جانب كبير من الأهمية فى موضوع الطبقات الاجتماعية ، والتنظيم الاجتماعى ، وإقامة مجتمع يستمد مبادئه الدينية من ديانة جديدة تقوم على فضائل أخلاقية دنيوية بعيدة عن كل مظهر سماوى أو روحانى . فقد كتب فى عام ١٨٢١ موضوعا بعنوان : « فى النظام الصناعى » Du Système Industriel وكتب فى عام ١٨٢٣ ، « تعاليم رجال الصناعة » Catéchisme des Industriels واختتم حياته الحافلة بكتابين أحدهما « آراء أدبية وفلسفية وصناعية » Opinions litéraires, philosophiques et industriels والثانى بعنوان « المسيحية الجديدة » Nouveau Christianisme وفى جميع هذه المؤلفات نجد أن هناك فكرة سائدة لدى سان سيمون وهى ضرورة قيام نوع من الحكم الديكتاتورى الذى يكفل القضاء على النظام

الإقطاعى الدينى . وقد رسم خطة واضحة لتنفيذ ذلك تتلخص فى ستة أوامر :

الأمر الأول والثانى يقضيان بتكليف المعهد العلمى L'Institut بإعداد تعاليم قومية لتعليم جميع أبناء الأمة ، فى حدود عشرين مليونا من الفرنكات سنويا . والأمر الثالث يقضى بإنشاء مجلس استشارى صناعى لإعداد ميزانية عام ١٨٢٢ . والأمر الرابع يلغى ألقاب النبلاء . والأمر الخامس يخفض الجيش المرتزق بإلغاء الحرس الملكى . أما الأمر السادس فيدعو مجلسا نيابيًّا جديدا للانعقاد طبقا للأمر الملكى الصادر فى ٥ فبراير سنة ١٨١٧ .

* * *

ولا يصح أن نطوى هذه الفترة من حياة سان سيمون دون أن نلقى الضوء على مرحلة هامة منها ، وهى الفترة التى بدأ فيها الفيلسوف فى استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى للطبقة العاملة . ففى عام ١٨٢١ بعث بنداء إلى « ترنو » Ternaux وهو من رجال الصناعة البارزين فى فرنسا فى ذلك الوقت ، يدعوه فيه إلى تنظيم فرقة أناشيد تقوم بإنشاد « لحن الصناع » من إعداد « روجيه دى ليل » Rouget de Lisle . ولا شك أن هذه الفكرة التى ظهرت عند سان سيمون مستوحاة من « روبرت أوين » Robert Owen ، فقد تفاعلت فكرة الموسيقى فى ذهن سان سيمون بعد أن سمع محاضرات « ألكسندر دى لا بورد » Alexandre de la Borde فى تفسير ونقد آراء أوين عام ١٨١٦ فى جمعية التعليم الابتدائى بباريس .

ولكن يبدو أن سان سيمون لم يوفق فى دعوته لرجال الصناعة فكتب إلى ترنو قائلا : « بعد أن أمعنت التفكير فى الأمر ، أدركت أنك كنت على حق عندما نبهتنى إلى أنه لابد من مرور وقت طويل قبل أن تصبح أفكارى صالحة للتنفيذ[1] » . ويختم سان سيمون رسالته إلى ترنو برجاء حار أن يعاونه فى إيجاد عمل لصديقته « جولى جوليان » Julie Juliand التى عاشرها عدة سنوات ، والتى لم يستطع أن يتحمل الإنفاق عليها فى ظروفه الحالية . وفى لحظة من لحظات اليأس يطلق سان

(١) مؤلفات سان سيمون وانفانتان : الجزء الأول : ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

سيمون على رأسه طلقة من مسدسه بغيه الانتحار ، ولكن الموت يخذله و يفقد عينه اليمنى فقط .

ما إن شفى سان سيمون فى شهر مايو عام ١٨٢٣ ، حتى تجمعه الظروف بشاب إسرائيلى من رجال المال والصناعة هو «أولينـد رود ريج» Olinde Rodrigue الذى أبدى إعجابه بسان سيمون و بأفكاره وأخذ على عاتقه مهمة نشر مؤلفاته وكتاباته . وقد ظهرت أربعة من مؤلفات سان سيمون عن « تعاليم رجال الصناعة » إلى الوجود بفضل معاونة رودريج . ويجدر بنا أن نشير إلى أن علاقة سان سيمون بأولينـد رودريج كانت وراء الدوافع التى حفزت سكرتيره أوجست كونت إلى التخلى عنه .

يقول أوجست كونت فى رسالة له إلى أحد أصدقائه يشرح فيها أسباب انفصاله عن سان سيمون : « لم يكن فقط لأن سان سيمون قد حاول أن يقودنى لتحقيق مآربه الخاصة ، ولكن الشىء الأكثر خطورة هو أننى تأكدت تأكداً لا مجال للشك فيه أنه صدم صدمة عنيفة عندما رأى أن الجمهور ينظر إلى بنفس الاهتمام الذى ينظر به إليه ، وأن الممول الذى يرعاه قد بدأ ينظر إلى بعين العطف ، فأراد أن يجعل منى أداة لا حول لها ولا قوة فى يديه[1] » .

وفى عام ١٨٢٥ نشر سان سيمون بمعاونة بعض أصدقائه وتلاميذه كتابيه الأخيرين اللذين أشرنا إليهما وهما « آراء أدبية وفلسفية وصناعية ». وفى هذا المؤلف تظهر فكرة سان سيمون فى الفصل بين العمل العقلى والعمل اليدوى ، أو بمعنى آخر بين نور العلم الذى يتصف به العلماء ، ومجرد المعرفة البسيطة التى يتزود بها العمال.

أما الكتاب الثانى وهو « المسيحية الجديدة » ففيه يقول بأن توحيد المعرفة سوف يتحقق عندما يقوم العلماء باتباع ما تدعو إليه ديانته الجديدة من إخاء حقيقى بين طبقة العلماء و بين الطبقة العاملة ، وعن طريق قيام جمعية تسعى إلى تحسين حال أكثر طبقات المجتمع عددا وأشدها حرمانا . ولم يمض شهر على ظهور « المسيحية الجديدة » حتى وافت المنية الفيلسوف الثائر فى ١٩ مايو سنة ١٨٢٥ ودفن فى مقابر « بير لاشيز » Père-Lachaise فى باريس بحضور جمع كبير من رواده وتلاميذه وعارفيه .

(١) Lettres d'Auguste Comte à Divers, T. II, 1905, p. 5.